شمائل معن بن زائدة الشيبانى

كما صورتها أشعار مروان بن أبى حفصة

د. أحمد أحمد منصور نفادى

تمهيد :

ان تناولى لأشعار « مروان بن أبى حفصة » التى أشاد فيها بمآثر معن بن زائدة الشيبانى وخلد ذكره بها ، وأضفى عليه من صفات الشجاعة والجود ما يكاد يجعله شخصية أسطورية قلما يجود الزمان بمثلها من وجهة نظره — وهى تلك الأشعار التى مدحه بها فى حياته ورثاه بها بعد موته تقتضينى أن أناقش موضوعى المديح والرثاء فى الأدب العربى لا من حيث كونهما غرضين بارزين يأتيان فى مقدمة أغراض الشعر العربى ولكن من حيث اسهامهما الفعال من طريق غير مباشر فى غرس مجموعة من القيم وأنماط السلوك التى لا تنهض الأمة بدون مراعاتها والتخلق بها وذلك عن طريق اشتمال قصائدهما على كثير من الفضائل النفسية والخلقية التى يتحلى بها الأماجد الكملة من أبناء المجتمع الذين استطاعوا أن يسودوا أبناء أمتهم وأن ينتزعوا عبارات الثناء والاعجاب من هؤلاء الشعراء الذين خلدوا مآثرهم وتغنوا بمدائحهم فى حياتهم ، وأحيوا ذكراهم واستعادوا صور أمجادهم ومكارم أخلاقهم فى قصائد رثائهم بعد موتهم .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان أدبنا العربى وفى مقدمته فنا المديح والرثاء أدب اجتماعى بناء يعمل على النهوض بأخلاق الأمة وتركيز دعائم الفضيلة فيها سواء كان شعراء المديح والرثاء صادقين فيما وصفوا به ممدوحيهم وخلدوا به ذكر موتاهم أم غير صادقين ؟؟

فما المدح الا جيشان نفس حساسة بتقدير الممدوح أو بما يعود عليها من هذا الممدوح ، فهى تترصد خلائقه أو تتصيد مكارمه أو تتغنى بما تتوهمه من سمات النبل وصفات الشهامة وتصوغ ذلك غنا يتغنى به الناس وينشده المجتمع •

وقد لا يكون ذلك لما فيه من صدق أو يحتويه من مطابقة ولكن لما ينضره من روعة الفن الآسر وجمال الصوغ الناضر ، ولعله من أجل ذلك دعا فريق من النقاد الى أن نلتمس الفن للفن(١) •

« يقول المرحوم العقاد (ص ١٢٨ أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب) وآخر هذه الدعوات التى تعجل بها المتعجلون ودسها معهم الدساسون أن الأدب العربى القديم أدب عتيق لا يصلح للبقاء ، لأنه كان أدبا شخصيا ولم يكن أدبا اجتماعيا يخدم الأمم ويمثل حياتها لها أو لمن يقرأ تاريخها من بعدها وقد يبدو للتعجل أن قصيدة المدح كلام لا يعنى أحدا غير السيد الممدوح والشاعر المادح ولا فائدة فيها لأحد بعد ذلك غير كاسب المدح وكاسب العطاء ، وليس أظهر من هذا الوهم عند أقرب نظرة ، فان قصيدة المدح لو كانت كذلك لما استحقت من الممدوح نفسه أن يبذل درهما واحدا ، ودع عنك المئات والألوف مما يذكره الرواة فى أحاديث الجوائز والهبات ، فلولا أن المجتمع يستفيد شيئا من القصيدة ويحفظها لهذه الغاية لما احتفى بها الممدوح ولا جاشت بها ملكة التعبير فى الشاعر •

ان المجتمع يستفيد من القصيدة أنها توحى فيه أخلاقا لا قوام له بغيرها فى قيادته وسياسته ومعاملاته المتبادلة بين أفراده ، وتلك هى

---

(١) د• عبد الحميد المسلوت : الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام ص ٢٦٤ وما بعدها •

أخلاق الشجاعة والرأى والحزم والكرم والمروءة والحياء وشمائل النبل والفداء ... ولم يخطىء أبو تمام حين قال :

ولولا خلال سنها الشـــعر ما درى بناة العلا من أين تؤتى المكارم

« والرثاء تصوير لما يتحلى به الانسان أو ما ينبغى أن يتحلى به من مكارم الأخلاق ومحاسن الطباع ... فهو محاولة لبناء المجتمـــع على نحو معين وسمت خاص فاذا بكى الشاعر شخصا ، واذا جزع على فقده فانما يبكى صفات فقدها وخلال كان يحب فيها الأنس أو يلتمس من ورائها المتعة .

يقول الأستاذ العقاد (ص ١٣٢ أشتات مجتمعات) ومن لم يفهم من شعر الرثاء فى اللغة العربية الا أنه شعر بكاء ينتهى بانتهاء مأتمه فليس له أن يتصدى لفهم أدب ولا أن يستخلص أحوال الناس عامة من أقوال الشعراء أو أقوال المؤرخين .

فنحن قد ننسى أسماء الموتى المبكيين فى دواوين شعرائنا الأقدمين ثم نخرج منها بالفائدة الأدبية والفائدة الاجتماعية التى تستفاد من كلام جدير بالاطلاع كيفما كان .

فمن هذا الشعر يتبين قيم الحياة الفانية وقيم الحياة الباقية عند ناظريه والمستمعين اليه ومنه نتبين ، عواطف الحزن ودواعيه التى تنم عن مآثر الأموات والأحياء ، ومنـــه نتبين كل خلق يتجلى فى مواقف الفراق الأخير ويحمده الناس فى مقام العزاء والوفاء .

ولا نتبين دلالة الرثاء العربى على الحياة العربية من شىء كمـــا نتبين من تخصصه بالناطقين بالضاد وقلة المشابهة بينه وبين أشعار الأمم فى رثاء موتاها ، وان كان الموت قضاء على الأحياء فى كل أمة وكل لسان) واذا كان الشعر الصادر عن أحاسيس صادقة ومشـــاعر

حقيقية يحدث أثره المشابه فى نفوس قارئيه أو سامعيه وينقلهم على أجنحة خياله الى ذلك العالم الذى عاش فيه الشاعر خلال معـاناته لتجربته(٢) التى أطال التعمق فيها حتى امتلأت بها جوانحه ودبت فى نفسه حمياها فرتب أفكارها وأجاد عرضـها وأحسن انتقاء ألفـاظها الموحية بها والمعبرة عنها..فان من يقرأ قصائد «مروان بن أبى حفصة» فى مديح معن بن زائد الشيبانى ورثائه يشعر أن هذا الشاعر قد أخلص لفنه كل الاخلاص وصدق مع نفسه كل الصدق فلهج بمدائحه حبـا واعتزازا ، كما زفر بمراثيه حزنا والتياعا .

نعم اننا نقرأ لمروان فى معن فنتذكر تلك الأشعار التى أثرت فى نفوسنا بصدقها كمدائح البحترى ومراثيه فى المتـوكل وكذلك مدائح المتنبى فى سيف الدولة ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيـه مالك حتى تدمع عينه العوراء وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد،وابن اللبانة على المعتمد بن عباد الاشبيلى ... الخ .

فمدار الحديث حول شمائل « معن بن زائدة » تلك التى صورتها قصائد مروان بن أبى حفصة فى مديحه ورثائه ، فمن الرجلان ؟ وماذا عنهما ؟ ثم كيف أخلص مروان لصاحبه وصدق فى حبه واجاد تصوير شمائله فى مدائحه اياه ومراثيه ؟؟

معن بن زائدة الشيبانى :

هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله الذى ينتهى نسبه الى

---

(٢) راجع ما أورده الدكتور غنيمى هلال عن التجربة الشعرية ص ٣٩٧ النقد الأدبى الحديث وما ذكره المرحوم المنفلوطى فى مقدمة النظرات ج ١ ص ٤٣ ط ١٣ سنة ١٩١٣ .

مطر بن شريك من ذهل بن شيبان(٣) كان شجاعا مقداما وافر العطاء كثير المعروف ، واسع الحلم ، كما كان شاعرا مجيدا ذكيا بارع الحيلة.

وقد كان فى أول أمره متصلا بالأمويين ، متنقلا باسمهم فى الولايات، ثم انقطع فى أواخر أيامهم الى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى « أمير العراقيين ، فلما أقامت الدولة العباسية ، وعملت على اخضاع كل أرجاء الخلافة الاسلامية لسلطانها ، والقضاء على من يظل على ولائه للأمويين والاعتزاز بذكراهم ، جرت مناوشات بين الجيوش العباسية،وابن هبيرة ودار قتال بين الفريقين ابلى فيه « معن » بلاء حسنا فلما انتهى الأمر بانتصار العباسيين وقتل ابن هبيرة « هرب معن واستتر فكان لا يخرج الا متنكرا(٤) ، وظل على ذلك طوال خلافة أبى العباس عبد الله السفاح وصدر خلافة أبى جعفر المنصور ، حتى وقعت فتنه «الراوندية» التى ينتسب أصحابها الى مدينة « روايد »(٥) والذين أرادوا الثأر لمقتل أبى مسلم الخراسانى « والانتقام من المنصور » عن طريق الحيلة فأحاطوا بقصره ونادوا بالوهيته ، وادعوا أن روح الله حلت فيه ، وأن عبادته واجبة ، فأخذ المنصور عددا كبيرا من رؤسائهم وحبس منهم حوالى مائتى رجل ، فثار الباقون ، فخرج اليهم وقد ظن أنهم لن يمسوه بسوء ماداموا قد نادوا بألوهيته ولكنهم أحاطوا به وكادوا يقتلونه لولا أن تقدم « معن بن زائدة » منتهزا لهذه الفرصة

---

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان : تحقيق احسان عباس جـ ٥ ص ٢٢٤ ط دار صادر ببيروت .

(٤) راجع أخبار تنكره واستتاره فى الأغانى : تهذيب ابن واصل الحموى (كتاب التحرير ص ١١١٠ .

(٥) راجع النجلاء للجاحظ وتصويره للمجتمع العباس ص ٢٥ عن ابن الأثير جـ ٥ ص ١٨٧ والشاعر أبو تمام لمحمد عطا ص ١٢ سلسلة كتب ثقافية وراوند قريبته من اصفهان ببلاد فارس .

لافتداء نفسه واستنقاذها من بطش المنصور وجبروته فقاتل بين يديه قتال من يحرص على حمايته وافتدائه بنفسه واستبسل في قتال الثائرين حتى نجح في تفريق جمعهم وتمكين حراس الخليفة من الغلبة عليهم وكان المنصور يلحظ ذلك وتمتلىء نفسه بحب ذلك الملثم المجهول الذى يبلى فى حمايته بلاء حسنا ويتعجل معرفته لتكريمه والإغداق عليه وتقريب منزلته فما أن تحقق النصر وأخمدت الفتنة حتى اقبل على « معن » يقول له فى اعجاب من أنت ؟ ويحك ! فيجيب معن :

أنا طلبتك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة الشيبانى فيقول له المنصور وقد تأكد من حسن نيته وصدقه فى التكفير عن ماضيه ، وتقديم دليله على ذلك :

أمنك الله على نفسك ومالك وأهلك • مثلك يصطنع ثم أكرمه وكساه وزينه •• ثم دعاه بعد مده فقال له « انى قدأهلتك لأمر فكيف تكون فيه » ؟

قال : كما يحب أمير المؤمنين •• قال : قد وليتك اليمن فابسط فيهم السيف حتى ينقض حلف ربيعة واليمن •• قال أبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ، فولاه اليمن وتوجه اليها فبسط فيهم السيف •

ولقد استطاع « معن » بذكائه وكياسته وتمام فطنته وحضور بديهته أن يكتسب ثقة المنصور الكاملة ويكون عند حسن ظنه ومحل تقديره على الرغم من حساسيته المفرطة تجاه أي تصرف يشعره بروح المنافسة لدى أى رجل من رجاله !! مهما كانت ضآلة هذه الروح •

يروى صاحب الأغانى عن مروان بن أبى حفصة أنه قال :

« قدم معن بن زائدة عقب توليه اليمن ، فدخل على المنصور فقال

له بعد كلام طويل قد بلغ أمير المؤمنين عنك بشيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك .

قال :

وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال : اعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معن بن زائـدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شـيبان
ان عـد أيام الفخـار فانما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال معن :

والله يا أمـير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهـذا الشعر وانمـا أعطيته لقوله :

مازلت يوم الهاشمية معلمـا بالسيف دون خليفـة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقـاؤه من وقع كل مهند وسـنان

فاستحيا المنصور وقال انما أعطيته ما أعطيته لهذا القول ؟؟ قال:

نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشناعة عندك لأمكنتـه من مفاتيح بيت المال وأبحته اياه ... فقال المنصور :

لله درك من اعرابى اما أهون عليك ما يعـز على الرجال وأهـل الحزم(٦) .

---

(٦) يوم الهاشمية المراد به يوم فتنة الراوندية الذى وقع فى مدينة الهاشمية التى اتخذها السفاح عاصمة للدولة بالقرب من الكوفة سنة ١٣٤هـ قبل أن يختط المنصور مدينة بغداد الأغانى : تهذيب بن واصل الحموى : كتاب التحرير ص ١١١٣ .

من أخبار كرمه وسماحته :

ولقد كان « معن بن زائدة » كريما حقا فهو فى جـــوده وعزيز احسانه وكثير عطـــاياه جدير بأن يقرن بكرماء العـــرب الذين ضربت بفيض نداهم الأمثال :

حكى ابن خلكان عن الأصمعى انه قال :

« وفد اعرابى على معن بن زائدة فمدحه وطال مقامه على بابه ولم يحصل على جائزته فعزم على الرحيل فخرج معن راكبا فقام اليه الأعرابى وأمسك بزمام دابته ثم قال :

وما فى يديك الخير يا معن كلـــه وفى الناس معروف وعنك مذاهب

ستدرى بنات العم ما قد اتيتـــه اذا فتشت عند الاياب الحقائب

فأمر معن باحضار خمس نوق من كرام ابله واقرهن له برا وميرة وثيـــابا •

وقال :

انصرف يا بن أخى فى حفـــظ الله الى بنـــات العمك فلئن فتشن الحقائب ليجدن فيها ما يسرهن • فقال له : صدقت وبيتا الله(٧) •

وكانت صفة الكرم عنده غريزة من الغـــرائز فهو يتصرف بدافع منها ووحى من الحاحها فلا يستطيع مقاومتها حتى ولو وصل به الأمر الى حد السرف ومجاوزة الحد •

---

(٧) جـ ٥ ص ٢٤٧ تحقيق احسان عباس •

حدث الشيخ البيهقى عن أبى يعقوب الخطابي انه قال :

« كنت جالسا عند معن بن زائدة واذا عليه ازار يساوى أربعة دراهم فقال : يا أبا يعقوب هذا ازارى وقد قسمت العام فى قومك خاصة أربعين ألف دينار •

فبينما نحن نتحدث اذ أبصر أعرابيا يحط به الآل من خوخة مشرفة له على الصحراء •

فقال لحاجبه : ان كان هذا يريدنا فأدخله ، فدخل الأعرابي وسلم وأنشأ :

يقول :

أصلحك الله قل ما بيدى فلا أطيق العيال اذ كثروا

ألح دهر رمي بكلكله فأرسلونى اليك وانتظروا

قال : فاضطرب وقال :

ارسلوك وانتظروا ! يا غلام • ما فعل بغلتنا الفلانية ؟ قال : حاضرة •

قال : كم هى ؟ قال : ألف دينار • قال : اطرحها اليه ثم قال : اذهب اليهم بما معك ثم اذا احتجت فارجع(٨) •

وقد أورد صاحب المستطرف من قصص شمائله ما أظنه من وضع الوضاعين لما فيه من شطط غريب(٩) •

---

(٨) المحاسن والمساوىء ص ٢٤٢ ط دار صادر ببيروت •

(٩) المستطرف فى كل فن مستظرف ط دار القلم ببيروت ص١٧٥

شـــاعريته :

وكما تحدث ابن خلكان عن سخاء معن فانه تحدث عن شـــاعريته فقال « ولمعن أشعار جيدة ، أكثرها فى الشجاعة وقد ذكره أبو عبدالله ابن المنجم فى البارع وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله فى خطاب ابن أخى عبد الجبار بن عبد الرحمن وقد رآه يتبختر بين السماطين ، وكان قبل ذلك لقى الخوارج ففر منهم :

هلا مشيت كذا غـــداة لقيتهم
وصبرت عند الموت يا خطاب ؟
نجـــاك خـــوار العنان كأنه
تحت العجاج اذا استحث عقاب
وتركت صحبك والرماح تنوشهم
وكذاك من قعدت به الأحساب(١٠)

نهـــايته :

وعن خبر وفاته يذكر ابن خلكان أيضا أنه كان قد ولى سجستان فى أواخر أمره وانتقل اليها وقصـــده الشعراء بها فلما كانت ســـنة احدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين وقيل ثمان وخمســـين ومائة كان فى داره صـــناع يعملون له فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلـــوه بسجستان وهو يحتجم ثم تتبعهم ابن أخيـــه يزيد بن مزيد بن زائدة فقتلهم بأسرهم » .

ومن رثاه من الشعراء غير مروان بن أبى حفصـــة « الحسين بن مطير الأسدى » الذى قال فيه :

---

(١٠) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٤٨ تحقيق احسان عباس .

ألما على معن وقــولا لقبـــره
سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان فيه البر والبحر مترعا

ويا قبر معن أنت أول حفـــرة
من الأرض خطت للمكارم مضجعا

بلى قد وسعت الجود والجودميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

فتى عيش فى معروفه بعــد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا(*)

مروان بن أبى حفصة :

هو أبو الهيزام ، أو أبو السمط ، ذو الكمر مروان بن ســليمان ابن يحيى بن أبى حفصة واسم أبى حفصة « يزيد » وكان يهــوديا فأسلم على يدى « مروان بن الحكم » .

وقيل انه كان من يهود « اصطخر » اشتراه عثمان بن عفــان رضى الله عنه فأسلم على يديه وانه وهبه لمروان بن الحكم .

وقــد خدم يزيد أبو حفصــة مروان وشــاركه فى كل المواقف السياسية ، والحربية التى تعرض لها فى عهد عثمان ومن بعــده اذ وقف معه يوم الدار وشارك فى الدفاع عن الخليفة ضد الثائرين ، وأنقذ مروان من الهلاك عندما جرح يومها بابعاده عن وجوه الثائرين،

(*) المرجع السابق ، المحاسن والمساوىء ص ٢٤٣ .

وكان يحمله خلال هروبه على عنقه أو يجره عندما يعجزه حمله وظل به الى أن أدخله دار امرأه من عنزة فداواه فيها حتى برىء ولقد قدر له ابن الحكم هذا الموقف الانسانى فاعتقه ونزل له عن أم ولد له كان قد أنجب منها ابنة تسمى « حفصة » فحضن يزيد الطفلة واهتم بتربيتها فكنى بها وصار يعرف بأبى حفصة منذ تلك الوقت(١١) .

وقد روى عن أبى حفصة انه قال يوم الدار :

وما قلت يوم الدار للقـوم صالحوا
أجل لا ولا اخترت الحياة على القتل

ولكننى قـد قلت للقـوم جالدوا
بأسيافكم لا يخلصن الى الكهـل

كما شهد مع مروان موقعة الجمل ضد على رضى الله عنه وخرج معه الى الشام عنـدما خرج عبد الله بن الزبـير وشارك فى موقعـة مرج راهط(١٢) .

وقد تزوج أبو حفصة أيضا بأمراة من بنى حنيفة ولدت له ابنـه يحيى وأبناء آخرين كما تزوج يحيى بابنة رجل من بنى أنف النـاقة يسمى « زياد بن هـوذة » فأنجبت له ابنه « سليمان » وقـد رزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥هـ (١٣) وقد سار أبناء أبى حفصة على نهجه فى الولاء لبنى أمية ومناصرتهم والتفـانى فى خدمتهم والتغنى

---

(١١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤٩ تحقيق احسان عباس .

(١٢) الأغانى : كتاب التحرير « تهذيب ابن واصل الحموى » ص ١١٠٥ ومرج راهط فى غوطة دمشق من ناحية الشرق وفيها قتل مروان ابن الحكم الضحاك بن قيس وخلت له الخلافة .

(١٣) د. حسين عطوان : شعر مروان بن أبى حفصـة ص ٧ ط دار المعارف بمصر .

بمدائحهم فقد روى انه كان له واد يسمى « مروان » وان مروان بن الحكم هو الذى سماه باسمه وأنه كان شجاعا وان عبد الملك أمد به الحجاج بن يوسف الثقفى فى حربه لابن الأشعث وكتب اليه يقول:بعثت اليك مولاى « مروان بن أبى حفصة » وهو يعدل ألف رجل(١٤) .

وأن يحيى بن أبى حفصة دخل على « الوليد بن عبد الملك » وقد تولى الخلافة بعد أبيه فغزاه وهنأه بقوله :

ان المنايا لا تغـــادر واحدا
يمشى ببرذنه ولا ذا جنـــة

لو كان خـلق للمنـــايا مفلتا
كان الخليفـــة مفلتـــا منهنه

بكت المنـــابر يوم مـات وانما
بكت المنـــابر فقد فارســـهنه

لما علاهن الوليـد خليفـــة
قلن ابنـــه ونظيره فســـكنه

لو غـيره قرع المنابر بعـــده
لنكرنه وطرحنـــه عنهنه(١٥)

وعلى نفس الطريقة سار مروان بن أبى حفصة فى أول أمره عندما كانت الدولة للأمويين والسلطان بأيديهم فلما أفل نجم عزهم وغربت شمس سلطانهم ، مال مع الريح حيث مالت ، وأقبل على خلفـاء بنى العباس يقبل أعتابهم ويغسل أقدامهم بدموع نفاقه بل ويصل به موت ضميره وقسوة قلبه الى أن يلتمس من آيات القرآن الكريم فى الميراث

(١٤) الأغانى : المرجع السابق ص ١١٠٦ .
(١٥) المرجع السابق ص ١١٠٦ .

ما ينظم معناه شعرا يؤيد به نظريتهم فى وراثة الملك غير عابىء بما يحدثه شعره من أثر أليم فى نفوس آل البيت النبوى الكريم وشيعتهم وما قد يجره عليه من هلاك على أيديهم !!

وقد روى عنه أنه قال فى بنى أمية :

بنو مروان قومى أعتقونى وكل الناس بعد لهم عبيد(١٦)

كما يروى أنه دخل على الوليد بن يزيد « ١٢٥ — ١٢٦ » مع عدد من الشعراء فيهم : الحسين بن مطير الأسدى « وطريح بن اسماعيل الثقفى » فمدحه بقصيدة منها قوله :

ان بالشـــام بالمـوتر عـــزا
وملـوكا مباركين شـــهودا
ســـاده من بنى يـزيد كراما
سبقوا النـاس مكرمات وجودا
هـان يا ناقتى على فســـيرى
ان تموتى اذا لقيت الوليدا(١٧)

ولا مانع من احتمال كونه قد نظم كثيرا من الأشعار فى مديح « الوليد بن يزيد » وغيره من خلفاء بنى أمية وأمرائهم الا أنه قـد فقد فيما فقد من أشعاره التى يذكر ابن المعتز « فى طبقـاته »(١٨) أنها كثيرة جـدا كما ذكر ابن النديم فى الفهرست « أنهـا كانت فى ثلاثمائة ورقة »(١٩) .

---

(١٦)
(١٧) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٣٥ .
(١٨) ص ٥٣ ط دار المعارف بمصر .
(١٩) مقدمة شعر مروان بن أبى حفصة تحقيق د. حسن عطوان .

أخـــلاقه :

والذى يتتبع سيرة « مروان بن أبى حفصة » يجد أنه كان بخيلا شديد البخل شحيحا مسرفا فى تقتيره وشحه حتى على نفسه فقد كان يعيش عيشة البؤس والحرمان وشظف العيش فلا يأكل من الطعام الا الهين اليسير ولا يرى عليه من الثياب الا الخشن الحقير فتقتحمه الأعين وتزدريه وهو الشاعر الثرى المتكسب الوصولى الذى استطاع بنفاقه أن ينفذ الى قلوب بنى العباس وينال من عطائهم ما لم يفز به منهم شاعر قبله حيث كان أول شـــاعر يأخذ منهم مائة ألف درهـــم مرة واحدة(٢٠) .

وقد روى صاحب الأغانى فى ذلك « أن المهدى كان يعطى مروان ابن أبى حفصة وسلما الخاسر » عطية واحدة فكان « سلم » يأتى الى باب المهدى على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم والسرج واللجـــام المقذوذين(٢١) ولباسه الخز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ورائحة المسك والطيب تفوح منه ويجىء مروان وعليه فروكبش وقميص كرابيس ، وكساء غليظ منتن الرائحة وكان لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم فاذا قرم أرسل غلامه فيشترى له رأسا فيأكله فقيل له : نراك لا تأكل الا الرءوس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم الرأس أعرف سعره فلا يستطيع الغلام أن يغبننى فيـــه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ان مس عينا أو أخذ أذنا ، وقفت على ذلك واكل منه ألوانا آكل عينه لونا واذنيه لونا وغلصـــته

---

(٢٠) حديث الأربعاء ج ٢ ص ٢٣٠ ط دار المعارف بمصر .

(٢١) الأغانى تهـذيب أمين واصـل الحموى ص ١١٠٧ والمقذوذ المستوى المزين ويقرم تشتد شهوته الى اللحم .

لونا ودماغه لونا وأكفى مؤونة طبخه فقد اجتمعت لى فيه مرافق كثيرة » .

وكان يحيى بن خالد البرمكى يضيق بما يراه فيه من رثاثة وسوء منظر فيقول له :

« والله لما يرى من أثر بخلك عليك أضر من الفقر لو كان بك »(٢٢)

نجاحه فى الوصول الى قلوب العباسيين :

وكان مروان يعبد المال عبادة ويقدسه تقديسا وكان يرى بينه وبين نفسه أن عصر القمع والجبروت الذى يعيش فيه لا يتيح لأمثاله ممن لا يملكون الا ألسنتهم أن يفوزوا باللذات ويملأوا خزائنهم بالأموال التى يسحرهم بريقها ويطربهم رنينها الا اذا كانت لديهم القدرة الفائقة على تغيير جلودهم وألسنتهم ونسيان ماضيهم وقطع كل صلة تربطهم به وتقديم الأدلة الكفيلة باقناع العباسيين بأنهم تابوا عن ضلالهم القديم توبة نصوحا وله فى موقف « معن » يوم الهاشمية كبير أسوة فماذا يفعل ؟ وما عساه أن يقول ؟ وقد استوعب شعراء المديح كل المعانى التى يمكن أن تأخذ بالألباب وتدفع الى احسان المكافأة واجزال العطاء ؟

غلب هذا التفكير على عقل مروان — أغلب الظن — عقب رحلته الأولى الى الخليفة المهدى تلك الرحلة ، الفاشلة التى عاد منها بخفى حنين ولم ينله منها الا الاهانة والتحقير وذلك أنه — كما يروى أبو الفرج(٢٣) دخل على المهدى بعد وفاة معن بن زائدة فى جملة

---

(٢٢) المرجع السابق .
(٢٣) المرجع السابق ص ١١١٢ .

الشعراء وفيهم سلم الخاسر وغيره فأنشده مديحا له فيه ، فقال له : من أنت ؟ فقال : شاعرك يا أمير المؤمنين مروان بن أبى حفصة فقال له المهدى :

ألست القائل :

أقمنا باليمامة بعد معن متاعا لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

ذهب النوال فيما زعمت فلم جئت تطلب أموالنا ؟ لا شيء لك عندنا .

جروا برجله ، فجروا برجله حتى أخرج(٢٤) .

وكان من عادة الشعراء أن يدخلوا على الخلفاء مرة فى كل عام فما انصرم العام الا وقد جاء مروان بقصيدته التى سحرت المهدى وملاءت قلبه رضا عليه لأنه صاغ فيها حجة أبيه المنصور فى رده على « النفس الزكية » شعرا تلك الحجة التى تقول ان أبناء البنات لا يرثون وان أبناء الأعمام محجوبون من الميراث بالأعمام وانتهى فيها الى أن عليا وأبناءه لا حق لهم فى خلافة المسلمين(٢٥) .. يقول أبو الفرج :

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١١١٢ .

(٢٥) لم تكن خلافة المسلمين ميراثا يورث وانما هى حق للمسلمين جميعا يجتمعون على النظر فيه ثم يختارون من يرونه أحق بها حسب أخلاقه وصفاته التى حددها الشرع وأقرها الفقهاء المسلمون وعلى فرض أنها ميراث وهى ليست كذلك فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « نحن معشر الأنبياء لا نورث » ويمكن أن تراجع المراسلات بين المنصور والنفس الزكية فى : العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف .

« فلما كان العام المقبل تلطف مروان حتى دخل مع الشعراء ... فمثل بين يديه وأنشده :

طرقتك زائرة فحى خيـــالها بيضاء تخلط بالحيـاء دلالهـا

قادت فؤادك فاستطار ومثلها قاد القلوب الى الصـبا فأمالها

فأنصت لها المهدى حتى بلغ مروان الى قوله :

هل تطمســـون من السماء نجومها
باكفكم أو تســترون هـــلالها

أو تجحــدون مقـــالة من ربكم
جـبريل بلغها النبى فقـــالها

شـــهدت من الأفعال آخـــر اية
بتـــراثهم فأردتم ابطـــالها

قال راوى القصة : فرأيت المهدى وقد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما سمع ، ثم قال : كم هى ؟ قال مائة بيت؟ فأمر له بمائة ألف درهم فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس(٢٦) وقد كان فى أبياته هذه يشير الى قوله تعـالى فى آخر آية من سورة الأنفـال « والذين آمنوا من بعد وهـاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم » .

« وعلى هذا النحو أخذ يردد هذا المعنى فى المدحة مسـتغلا لآى

---

(٢٦) الأغانى : كتاب التحرير ص ١١١٤ .

الذكر الحكيم حتى صاغها صياغة فقهيـــة شعرية كما يقول الدكتـــور طه حسين(٢٧) :

وقد دخل على المهدى أيضا فمدحه بقوله :

يا بن الذى ورث النبى محمـــــدا
دون الأقارب من ذوى الأرحـــام

الوحى بين بنى البنـــــات وبينكم
قطع الخصام فلات حـــين خصام

ما للنســـاء مع الرجال فريضـــــة
نزلت بذلك ســـــورة الأنعـــام

انى يـــكون وليس ذاك بـــــكائن
لبنى البنـــــات وراثة الأعمـــــام

الغى سهامهم الكتاب فحـــــاولوا
أن يشرعوا فيهـــا بغـــير ســـــهام

ظفرت بنو ســـاقى الحجيج بحقهم
وغـــررتم بتـــوهم الأحـــــلام

خلـــــوا الطريق لمعشر عـــاداتهم
حطم المناكب كل يوم زحـــام(٢٨)

فسحر بها المهدى وأعطاه مالا عظيما .

---

(٢٧) انظر شـــعر مروان بن أبى حفصـــة ص ١٠ وحديث الأربعاء ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢٨) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٢٠٤ .

كما دخل على الرشيد بعد ذلك فقال فى مديحه :

أمور بمـــيراث النبى وليتهـــا
فانت لهـــا بالحزم طـاو وناشر

اليكم تنـــاهت فاستقرت وانمـــا
الى أهله صارت بهن المصـــائر

ليهنكم الملك الذى أصـــبحت بكم
أسرتـــه مختـــالة والمنـــابر

أبوك ولى المصـــطفى دون هاشم
وان رغمت من حاسديك المنـــاخر

فأعطاه خمسة آلاف دينار فقبضها بين يديه وكساه خلعه وأمر له بعشرة من رقيق الروم وحمله على برذون خاص من مراكبه(٢٩) •

ومع انقطاعه لخلفاء العباسيين وقصر مدائحه عليهم فان له مدائح رائعة فى يحيى بن خالد البرمكى وابنيه الفضـــل وجعفر ، فمن ذلك قوله فى يحيى :

اذا بلغتنا العيس يحيى بن خـــالد
أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر

ســـمت نحوه الأبصـــار منا ودونه
مفاوز تغتال النيـــاق بها الســـفر

---

(٢٩) المرجع السابق ص ٥٤ ، ١١ •

فان تشـــكر النعمى التى عمنـــا
فحق علينا ما بقينا له الشكر(٣٠)

وقوله فى الفضل بن يحيى :

اذا أم طفـــل راعها جوع طفلهـــا
غذته بذكر الفضل فاستعصم الطفل

ليحيى بك الاســـلام أنك عـــزه
وأنك من قوم صغيرهم كهـــل(٣١)

وقوله فى جعفر بن يحيى :

الى جعفر ســـــارت بنا كل جـــرة
طـــواها سراها نحـــوه والتهجـــــر

الى واســـــع للمجتدين فنـــــاؤه
تروح عطـــــاياه عليهم وتبـــــكر

ابر فمـــــا يرجو جـــــواد لحاقه
أبو الفضل ســـباق اللها ميم جعفر

وزير اذا أنـــاب الخليفة حـــــادث
أشار بما عنه الخليفة يصـــدر(٣٢)

ما جره عليه تحامله على العلويين :

واذا كان تأييده للعباسيين فى افتئاتهم على بنى عمهم العلـــويين

---

(٣٠) المرجع السابق ص ٥٢ .
(٣١) العصر العباسى الأول ص ٣٠٠ .
(٣٢) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٥١ .

ونظمه لنظريتهم فى وراثة الملك شعرا قد أرضاهم عنه وأدنى مجلسه عندهم وملأ خزائنه بأموالهم فان ذلك أغضب منه العلويين وملأ قلوبهم بالنقمة عليه وجعل أشياعهم يدبرون لقتله غيلة ويتحينون الفرصة لذلك ، حتى اذا أمكنتهم اهتبلوها دون تردد !!

فقد حدث رجل من الشيعة يقال له « صالح بن عطية الأضجم قال : لما قال مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

لزمته وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى وما زلت الأطفه وأبره واكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بى ولم أزل أطلب غرة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل ، أظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه حتى خلا لى البيت يوما ، فوثبت عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وارتفعت الصيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن لما فعلته أحد ولا اتهمنى به(٣٣) وكان ذلك سنة ١٨٢هـ أى قبل أن يبلغ الثمانين(٣٤) من عمره ويقال أن وفاته كانت بعد ذلك بعدة سنوات(٣٥) .

ما يتعلق بشعره :

نشأ مروان فى أسرة كان كل أبنائها شعراء .

---

(٣٣) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٣٤) العصر العباسى الأول ص ٣٠١ .

(٣٥) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٩ .

كانت شاعريته مبكرة وناضجة بدليل رحيله لمديح « الوليد بن يزيد الأموى » وهو فى العشرين من عمره(٣٦) وعرف عنه أنه عاش فى اليمامة « موطنه وموطن أسرته من قبله وانه كان يرحل عنها الى بغداد ثم يعود اليها ولذلك فانه لم يتثقف بالثقافات الأجنبية ولم يتأثر بالحضارة العباسية فى معانيه فجاء شعره « أقرب الى شعر الجاهلين والاسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحضارة العباسية تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة التى تخلو أو تكاد من الدعابة والخفة وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة فهو يمثل البادية تمثيلا صحيحا ولهذا رضى عنه علماء اللغة جميعا وأحبوه من هذه الناحية وما أشك فى أنهم كانوا يودون لو استطاعوا ايثاره على بشار وأبى نواس لأنه كان أقرب منهما الى الاسلوب البدوى القديم ولكن أنى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحاربوا هذين الشاعرين ويتملقوهما وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وايثاره على مروان ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين واذا اتخذنا وجهة البحث والنقد هذه الوجهة التى كان يعنى بها علماء اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والاسلوب فلا يقاس الى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق اما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد اذا اتخذنا اختلاف الفنون التى طرقها الشاعر وقرب المأخذ والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبى نواس بنوع خاص على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنه لا يخاف ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس ، وأثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين وهذا العالم

---

(٣٦) معروف أن الوليد بن يزيد كان خلافته من (١٢٥ ـ ١٢٦هـ) وأن مروان ولد فى سنة ١٠٥هـ .

اللغوى هو ابن الأعرابى الذى ختم الشعراء بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده(٣٧) .

ومعظم قصائده التى بين أيدينا تدور حول المديح والرثاء وليس له وراء هذين الغرضين شعر ذو قيمة لأنه قليل جدا « ولقد أجمع القدماء على أنه كان من عبيد الشعر يريدون أنه كان يتأنى فى صنع قصائده ويطيل النظر فيها لتنقيحها وفى ذلك يقول الأصمعى مروان بن أبى حفصة متكلف يشبه زهيرا والحطيئة ويقول ابن المعتز :

انه من المجيدين المحكمين للشعر ولقد اعترف هو بذلك فقال :

كنت أعمل القصيدة فى أربعة أشهر وأحككها فى أربعة اشهر وأعرضها فى أربعة أشهر ثم أخرج بها الناس وهو يعنى بعرضها أنه كان ينشدها بين أيدى العلماء والشعراء المشهورين ويطلب اليهم تقويمها حتى يطمئن الى جودتها وفى أخباره أنه كان يعرض بعض قصائده على بشار بن برد وبعضها على يونس بن حبيب كما كان يعرض غيرها على خلف الأحمر ومحمد بن سلام الجمحى(٣٨) .

وشكل القصيدة عنده لم يكن يختلف عما عند « الجاهليين والأمويين اذ كان يستهلها بالمقدمة الطللية أو الغزلية أو مقدمة وصف الطيف ثم ينتقل الى وصف رحلته فى الصحراء ثم يشرع فى المديح بل أنه كان يطيل فى تصوير الصحراء ورحلته فيها اطالة شديدة حتى أنه وصف فى مدحة له فى الرشيد ناقته من خطامها الى خفيها ، كما وصف الفيافى من اليمامة الى بابه أرضا أرضا ورملة رملة(٣٩) .

---

(٣٧) د. طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٣٨) شعر مروان بن أبى حفصة ص ١٢ .
(٣٩) المرجع السابق عن تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٥٨ .

« وأما معانى شعره فقليلة معدودة ومكرورة معادة وبخاصة فى المديح فانه اقتصر على ترديد صفات معينة كالكرم والشجاعة والشدة والأصل العريق مع تفوقه فى الاحتجاج للعباسيين ، ولعل أحدا من القدماء لم يدرس شعره دراسة دقيقة ولا أصدر عليه حكما صحيحا مثل الشريف المرتضى فانه يقول فيه :

ذاكرنى قوم من أهل الأدب بأشعار المحدثين وطبقاتهم وانتهوا الى مروان بن أبى حفصة ، فأفرط بعضهم فى وصفه وتقريظه وآخرون فى ذمه وتهجينه والازراء على شعره وطريقته واستخبروا عما أعتقده فيه فقلت لهم :

كان مروان متساوى الكلام متشابه الألفاظ غير متصرف فى المعانى ولا غواص عليها ولا مرفق لها فلذلك قلت النظائر فى شعره ومدائحه مكررة الألفاظ والمعانى وهو غزير الشعر قليل المعنى الا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحذق وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته وأشعر شعراء أهله ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد فى تنقيح الألفاظ وتدقيق المعانى وحسن الألفاظ ووقوع التشبيهات ودون بشار ابن برد فى الأبيات النادرة السائرة فكانت طبقة بينهما وليس بمقصر دونهما ولا منحط عنهما بعيدا(٤٠) .

ولقد تحدث ابن رشيق عن مدائح مروان فذكر أن مدائحه تفوق مدائح جرير والفرزدق(٤١) .

ما قاله مروان فى معن بن زائدة :

ولو تتبعنا أشعار مروان فى معن حسبما جمعه له الدكتور «حسين

---

(٤٠) المرجع السابق ص ١٣ .

(٤١) العمدة جـ ٢ ص ١٣١ ط دار الجيل بيروت ـ وأماله المرتضى جـ ١ ص ٥١٨ .

عطوان »(٤٢) نجد أن له فى مديحه ست قصائد وأربع مقطعات،كما أن له فى رثائه قصيدة واحدة عدتها أربعة وخمسون بيتا ومقطوعة من ثلاثة أبيات فقط وسوف أشير الى قصائد المديح المذكورة فى الديوان المجموع مرتبا لها بحسب عدد أبياتها وليس بحسب ترتيبها فى الديوان ... وهى كما يلى :

١ ــ قصيدة عدتها ثمانية وعشرون بيتا(٤٣) :

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا وان كان من عهد الصبا قد تمتعا

وفيها :

وما ألغيث اذ عم البلاد بصوبه على الناس من معروف معن بأوسعا

... الخ .

٢ ــ قصيدة عدتها واحد وعشرون بيتا(٤٤) ، مطلعها :

هاجت هواك بواكر الأظعان يوم اللوى فظللت ذا أحزان

وفيها :

معن بن زائدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان

٣ ــ قصيدة عدتها عشرون وأولها :

كأن التى يوم الرحيل تعرضت لنا من ظباء الرمل أدماء مغزل

---

(٤٢) المرجع السابق ط دار المعارف بمصر .

(٤٣) ص ٦٣ المرجع السابق .

(٤٤) ص ٨٨ وأغلب ظن أن ما بدأت به ليس مطلعها وانما هو بيتا جاء بعد المطلع المفقود بعدة أبيات والظبية الادماء أنثى الغزال البيضاء . والمغزل البيضاء والمغزل التى معها ولدها .

وفيها يقول فى قبيلة معن :

ينو مطر يوم اللقـــاء كأنهم أسود لها فى غيل خفان أشـــبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منـــزل

٤ ــ قصيدة عدتها عشرة أبيات مطلعها (٤٥) :

ويوم عسول الآل حســـام كأنما لظى شمسه مشـــبوب نار تلهب

غصبنا له منا الوجـــوه وكنها عصـــائب أســـمال بهـــا نتعصب

وفيها :

الى باب معن ينتهى كل راغب يرجى الندى أو خائف يترقب

٥ ــ قصيدة عدتها عشرة أبيات (٤٦) أيضا ، مطلعها :

ما يلمع البرق الا حن مغترب كأنه من دواعى شوقه وصب

وفيها عن معن :

قل للجواد الذى يسعى ليدركه أقصر فمالك الا الفوت والطلب

٦ ــ قصيدة عدتها تسعة (٤٧) أبيات ، ومطلعها :

أسى المشيب من الشباب بديلا ضيفا أقام فما يريد رحيلا

---

(٤٥) ص ١٦ المرجع الســابق وعول الال : سريع السراب والــكن بكسر الكاف : وقاء كل شىء وستره والعصائب : الطيات ــ الاسماك : الشباب الخلقة .

(٤٦) ص ٢٠ المرجع السابق .

(٤٧) ص ٧٧ المرجع السابق .

وليس فيها اشارة الى معن الا البيت التاسع وهو قوله عن بنى شريك قبيلة معن :

لو كان جـــدكم لمعن والدا للناس لم تلد النساء بخيلا

مما يدل على ضياع بقيتها .

أما المقطعات الأربع فى مديحه فهى :

١ ــ بيتان فقط هما(٤٨) :

مسحت ربيعة وجه معن سابقا لما جرى وجرى ذوو الأحساب

خلى الطريق له الجياد قواصر من دون غـــايته وهن كوابى

٢ ــ خمسة أبيات هى(٤٩) :

اذا ما تذكرت النظيـــم ومطـــرقا

حننت وأبكانى النظـيم ومطـــرق

تحن قلوص نحـــو صـــنعاء اذ رات

سماء الحيا من نحو صـــنعاء تبرق

تحن الى مرعى بصـــنعاء مخصب

وشرب رواء مـــاؤه لا يرنـــق

وقد وثقت أن سوف يصـــبح ريها

اذا وردت أحـــواض معن ويغبق

---

(٤٨) ص ٢٤ .

(٤٩) ص ٦٨ والنظيم ومطرق من نواحى اليمامة موطن الشـــاعر ويصبح : يشرب فى الصباح ويغبق يشرب فى العشى .

تـؤم شريكيـا تهلل بالحيـــا
مخـــائله للشـــائمين فتصدق

٣ ــ أربعة أبيات هى(٥٠) :

قد أمن الله من خـــوف ومن عدم
من كان معن له جـــارا من الزمن

معن بن زائـدة الموفى بذمتـــه
والمشترى المجـد بالغالى من الثمن

يرى العطايا التى تبقى محـامدها
غنما اذا عـــدها المعطى من الغبن

بنى لشيبان مجـدا لا زوال لـه
حتى تـزول ذرا الأركان من حضن

٤ــ ثلاثة أبيات هى (٥١) :

ما من عـــدو يرى معنا بساحته
الا يظن المنـايا تسبق القـــدوا

يلفى اذا الخيل لم تقدم فوارسـها
كالليث يزداد اقداما اذا زجـــرا

أغر يحسب يـــوم الروع ذا لبد
وردا ويحسب فوق المنبر القمـرا

---

(٥٠) ص ١٠٩ وحضن : جبل بأعلى نجد .
(٥١) ص ٤٤ .

أما قصيدة الرثاء فمطلعها فى الديوان المجموع(٥٢) :

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد ولن تنالا

ومنهـا :

أقمنـا باليمامة بعـد معن
مقـاما لا نريد لـه زيالا

وقلنا أين نرحل بعـد معن
وقد ذهب النوال فلا نـوالا

وأما مقطوعة الرثاء التى جاءت فى ثلاثة أبيات فهى(٥٣) :

يا من بمطـلع شمس ثم مغربهـا
ان السـخاء عليكم غير مردود

قل للعفاة أريحوا العيس من طلب
ما بعد معن حليف الجود من جود

قل للمنيـة لا تبقى على أحـد
ان مات معن فما ميت بمفقـود

اعجاب القدماء بأشعاره فى معن :

ونبرة الصدق التى تشيع فى قصائد مروان فى معن بن زائدة كان

---

(٥٢) ص ٧٩ وهناك قصيدة أخرى أثبت الدكتور حسين عطوان أنها للحسين مطير الاسدى فى رثاء معن ومطلعها :

لندبك أحزان وسـابق عبرة أثر دما من داخل الجوف

ومنها البيت الشهير :

ويا قبر معن كيف واريت جـوده وقد كان منه البر والبحـر مترعا

(٥٣) ص ٤٠ المرجع السابق .

لها أكبر الأثر فى نفوس الذين استمعوا اليها فأعجبوا بها وأكثروا ثناءهم عليها حتى كان منهم من أجزل لمروان العطاء عندما استنشده مرثيته فى معن فأنشده اياها فقد روى عبد الله بن المعتز فى طبقاته(٥٤) أن مروان « دخل على جعفر بن يحيى البرمكى فوقف ينشده فى مديحه اياه :

أبر فما يرجو جواد لحاقه أبو الفضل سباق اللهاميم جعفر

وزير اذا ناب الخليفة حادث أشار بما عنه الخليفة يصدر

فقال : ويحك ! أنشدنى مرثيتك فى معن :

وكان الناس كلهم لمعن الى أن زار حفرته عيالا

فأنشده اياها حتى فرغ من القصيدة وجعفر يرسل دموعه فلما سكن قال : أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئا ؟ قال : لا قال جعفر : فلو كان معن حيا ثم سمعها منك ، كم كان يثيبك عليها قال : أربعمائة دينار • قال جعفر : لكنى أظن أنه كان لا يرضى لك بذلك وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلت ونحن مثل ذلك فاقبض من الخازن ألفا وستمائة دينار قبل أن تنصرف الى رحلك فقال مروان يذكر ذلك ، ويمدح جعفرا ، وزادها فى مرثيته لمعن :

نفحت مكارما عن قبر معن

لنا مما تجود به سجالا

---

(٥٤) تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف بمصر ، كما نجد هذه القصة فى وفيات الأعيان نقلا عن ابن المعتز مع تغيير يسير جـ٥ ص ٢٥١ تحقيق احسان عباس ط دار صادر ببيروت وأبر عليه : غلبة، واللهاميم جمع لهميم وهو السابق الجواد •

فعجـــلت العطيـــة يا بن يحيى
بتـــأدية ولم ترد المطـــالا

فـــكافأ عن صدى معن جـــواد
بأجـــود راحـــة بذلت نـــوالا

بنى لك خـــالد وأبـــوك يحيى
بنـــاء فى المـكارم لن ينـــالا

كأن البـــرمكى بـكل مـــال
تجـــود به يراه يفيـد مـــالا

كما يرى « ابن المعتز » فى طبقاته أيضا(٥٥) أن « شراحبيل » ابن معن بن زائدة قال : عرضت فى طريق مكة ليحيى بن خالد وهو فى قبة ومعه أبو يوسف القاضى وهما يريدان الحج فانى لاسير تحت القبة اذ عرض له رجل من بنى أسد فى شارة حسنة فأنشده شـــعرا فقال يحيى فى بيتا : ألم أقل لك ألا ترجع الى مثل هذا المعنى ؟ .. ثم قال : يا أخا بنى أسد اذا قلت الشعر فقل كقول الذى يقول :

بنو مطر يوم اللقـــاء كأنهم
أسود لها فى بطن خفان أشبل(٥٦)

هم يمنعـــون الجار حتى كأنما
لجارهم بين السماكين منـــزل

لهاميم فى الاسلام سادوا ولم يكن
كـــأولهم فى الجاهليـــة أول

---

(٥٥) ص ٤٣ المرجع السابق .

(٥٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٣ ولهاميم : جمع لهميم وهو السابق الجواد .

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا
أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالهم
وان أحسنوا فى النائبات وأجملوا

ثلاث بأمثال الجبال حباهم
وأحلامهم منها لدى الوزن أذقل

فقال له أبو يوسف — وقد أعجبته الأبيات — من قائل هذه الأبيات يا أبا على ؟

قال يحيى : قائلها مروان بن أبى حفصة يمدح أبا هذا الفتى الذى تحت القبة .

قال شراحبيل : فرمقنى أبو يوسف بعينيه وأنا على فرسى وقال : من أنت يا فتى .

حياك الله ؟ قلت : شراحبيل بن معن بن زائدة .. قال شراحبيل: فوالله ما مرت على ساعة قط كانت أقر لعينى من تلك الساعة ارتياحا وسرورا .

شمائل معن بن زائدة كما صورتها أشعار مروان بن أبى حفصة :

واذا كان المدح هو الثناء على انسان بذكر أفضاله وتعداد خلاله الكريمة ، وخصاله العظيمة « والرثاء ، تصوير ما يتحلى به الانسان أو ما ينبغى أن يتحلى به من مكارم الأخلاق ومحاسن الطباع »(٥٧)

---

(٥٧) د. عبد الحميد المسلوت : الأدب العربى بين الجاهليين والاسلام ص ٢٦٠ وتروى بها ليل الخ .

فان مروان بن أبى حفصة قد أشاد فى الغرضين بمعن اشادة بالغة ونجح فى رسم صورة مثالية لشمائله التى تميز بها وقفت خلال تكوينه لملامحها واستيفائه لظلالها وألوانها مشاعره الشخصية تجاه معن من وراء عقله فجاءت الصورة ناطقة معبرة ، والتصوير بالغا مؤثرا .

فقد أثارت مدائحه له فى نفوس قرائها وسامعيها أحاسيس الإكبار لهذا البطل الخرافى الذى لا يبارى فى مكارم الأخلاق ومحامد الشيم ، كما ملأت مرثيته فيه العيون بالدموع والقلوب بالآلام والأحزان وما كان ذلك ليحدث لو لم يصدق الشاعر مع نفسه فى مديحه لمعن وبكائه عليه لأنه لم يأت بجديد عما كان مألوفا من المعانى التى صاغها الشعراء فى الغرضين المذكورين ، رغم تصنعه وتحكيكه .

فما شمائل معن التى نستطيع أن نقف عليها حسبما صورتها أشعار مروان فى مديحه ورثائه ؟

انه ماجد نبيل ورث طباع آبائه وأجداده بنى مطر بن شريك بن شيبان أولئك الأعزة الكماة الذين أشبهوا الأسود المشبلة حمية واقداما وجمعوا كل المحامد فى الجاهلية والاسلام فلا غرو أن يسير سيرتهم « معن » ويحذو حذوهم فى كرمه ونجدته مادام الواد سر أبيه وامتداد ذكره :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
أسود لها فى غيل خفان أشبل(٥٨)

هم يمنعون الجار حتى كأنما
لجارهم بين السماكين منزل

---

(٥٨) ص ٨٨ شعر مروان بن أبى حفصة واشبل وهو ولد الاسو اذا أدرك الصيد .

بهاليل فى الاسلام سادوا ولم يكن
كأولـهم فى الجـاهلية أول

هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا
أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفـاعلون فعـالهم
وان أحسنوا فى النائبات وأجملوا

تجنب لا فى القـول حتى كأنه
حرام عليه قـول لا حنين يسـأل

تشـابه يوماه علينـا فأشـكلا
فلا نحن ندرى أى يوميه أفضـل

أيوم نداه الغمر أم يوم بؤسـه
وما منهـا الا أغـر محجـل

ولقد بالغ معن فى اقتدائه بآبائه فى أمجادهم ومكارمهم فبز الأقران جميعا وأعجزهم عن منافسته وأقعدهم عن اللحاق به :

بنو شريك هم القـوم الذين لهم
فى كل يوم رهان يحرز القصب(٥٩)

ان الفوارس من شيبان قد غرفوا
بالصدق ان نزلوا والموت ان ركبوا

قد جرب الناس قبل اليـوم أنهم
أهل الحلوم وأهل الشغب ان شغبوا

---

(٥٩) ص ٢٠ المرجع السابق وينطق الشـعر الثانى للبيت بحيث يكون القصب نائب فاعل وليس مفعولا به كما ذكر الدكتور حسين عطوان

قل للجواد الذى يســـعى ليدركه
أقصر فما لك الا الفـــوت والطلب

والعجيب فى أمره أن مخايل النجابة ظهرت عليه منـذ أن كان صبيا لا يزيد عمره عن تسعة أعوام :

نجيب مناجيب وسيد ســادة ذرا المجد من فرعى نزار تفرعا
فبأنت خصال الخير فيهواكملت وما كملت خمســا سنوه وأربعا

فمعن شجاع مقدام حمى بشجاعته قبة الدين ومنعها أن تنهار وتنتزع أوتادها كما أنزل الرعب فى قلوب الأعداء فيئسوا من التفكير فى مواجهته لكثرة ما أوقعه بهم من هزائم .

وما ذاقوه على يديه اللتين تحملان النفع والضر معا ؟!
تدارك معن قبــة الدين بعـــدما
خشينا على أوتادها أن تنزعـــا

وما أحجم الأعــداء عنك بقيـــة
عليك ولكن لم يروا فيك مطعمـــا

رأوا مخدرا قد جربوه وعاينــوا
لدى غيله منهم مجــرا ومصرعا

اذا عجمته الحــرب لم تره عظمه
وفل شيا الأنياب منهـــا فأسرعا

وليس بثانيه اذا شـــد أن يرى
لدى غمـــرة رزق الأســنة شرعا

له راحتان الحتف والغيث فيهمـا
أبــى الله الا أن تضر وتنفعـــا

لقد دوخ الأعداء معن فأصـــبحوا
وأمنعهم لا يدفع الذل مدفعا(٦٠)

فهو فى باب الشجاعة والاقدام عديم الانداد والنظراء ــ من وجهة نظر مادحه وراثيه ــ لأنه لم يكن يحرص على كنز الأمـوال كبقية الناس ولكنه كان يكتنز عدة الحرب من السيوف الجيدة المصقولة، والدروع السابغة المحكمة السرد والرماح الخطية المثقفة التى تصدق حامليها يوم الروع .. وليس هذا وحده الذى فجع القلوب بفقده ، وانهل العيون بدموع الأحزان عليه ، بل لأن موته وهو الفاضل النقى الهمام حول خيول الجهاد التى كانت تحـقق النصر وتحرز الغنـائم والأسلاب الى مجرد مطايا للحمل والنقلة عليها فليت من شمتوا به كانوا له فداء من الموت وليت عمره امتد وطال .

فليست الشـــامتين به فـــدوه
وليت العمر مد له فطـــالا(٦١)

فلم يك كـــنزه ذهبـــا ولكن
ســـيوف الهنـــد والحلق المذالا

وذابلـــة من الخطى ســـمرا
ترى فيهن لينـــا واعتـــدالا

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٦٤ .

(٦١) المرجع السابق ص ٨٠ والحلق المزال : الدروع المحكمة الصنع ورويدا : مهلا والتقدير أذيلت الخيل اذالة رويدا واذالتها وضـع أداة الحرب عنها وامتهـانها بالعمل والحمل عليهـا والعقب أن تغير الخيل طائفة بعد طائفة أى يعقب بعضها بعضـا فى الغزو ، وحبـاله : المراد ، حوامل للغنائم والاسلاب ــ والنهاب : جمع نهب وهو الغنيمة والطلال من طل دمه اذا أهدر .

وذخرا من محـــامد باقيـــات
وفضـــل نقى به التفضـــيل نالا

لئـــن أمســـت رويدا قـــد أذيلت
جيـــاد كان يـــكره أن تـــذالا

لقـــد كانت تصاب به ويســـمو
بهـــا عقبـــا ويرجعهـــا حبـــالى

وقد حوت النهـــاب فأحـــرزته
وقـــد غشيت من الموت الطـــلالا

ومثل هذا الرجل الشجاع ، الكريم المحتد لا ينساه الخليفة بل يذكره بالخير فى كل موقف يختبر فيه رجاله الأكفاء ويتذكر بأســـه وشدة حميته على أعدائه .

فمـــا شهد الوقـــائع منك أمضى
وأكرم محتدا وأشـــد بالا(٦٢)

سيذكرك الخليفـــة غـــير قال
اذا هو فى الأمور بلا الرجـــالا

ولا ينسى وقـــائعك اللـــواتى
عـــلى أعـــدائه جعلت وبالا

ومعتـــز كما شـــهدت به حفاظا
وقد كرهت فوارسه النـــزالا(٦٣)

---

(٦٢) أمضى : أقوى وأشد جرأة والبال : القلب ـ والمحتد الأصل .
(٦٣) الوبال : الهلاك ، المعترك : موضع الحرب ، الحفاظ : الدفاع عن الحرم ومنعها من العدو أن ينالها .

والبطل الشجاع الذى تتحاماه الأبطال فى مواطن النزال وساحات القتال لما يعتريها من الرعب عند مواجهته لوثوقها بالقتل على يديه وأن منایاها فى ركاب ذلك الليث العنيد الذى لا يزيده الزجر الا اقداما واصرارا على خوض غمرات الأهوال التى تتقيها أشجع الفرسان .. هذا الرجل قد اجتمعت له الى البطولة وقوة الشكيمة الخلقة الحسنة التى تبهر من ينظر اليه فوق المنبر فيظن أنه يطالع صفحة البدر ليلة تمامه :

ما من عدو يرى معنـــا بساحته
الا يظن المنايا تسبق القدرا(٦٤)

يلفى اذا الخيل لم تقدم فوارسها
كالليث يزداد اقداما اذا زجـرا

أغـر يحسب يـوم الروع ذا لبد
وردا ويحسب فوق المنبر القمـرا

ووجهه المشرق الذى يضىء فى دجى المعارك عندما تكفهر الوجوه وتزبد الملامح يضفى على أسرة تلك الملك ومنابر المساجد بهجة واشراقا ويزينها بصوته الجهورى ومنطقه الصائب وبيانه الفصيح الأخاذ :

تمضى أسـنته ويسـفر وجهه
فى الروع عنـد تغـير الألوان

يكسو الأسرة والمنـابر بهجـة
ويزينهـا بجهـارة وبيـان

---

(٦٤) المرجع السابق ص ٤٤ .

أما الكرم والجود ، فهما أخص صفات معن ، وأبرز شمائله فكأنه لم يخلق الا لهما ولم يخلقا الا له فهو جواد معطاء يحرص على شراء المحامد ويبذل من أجل اكتسابها أغلى الأثمان ويرى احرازها كسبا ما بعده كسب فهى زخره الذى يعتز به والذى لا يستطيع أن يجاريه فى اقتنائه أحد :

يقول مروان فى معن :

معن بن زائـدة الموفى بذمتـه
والمشترى المجد بالغالى من الثمن(٦٥)

يرى العطايا التى تبقى محـامدها
غنما اذا عـدها المعطى من الغبن

ويقول مخاطبا اياه :

أنت الذى ترجـو ربيعـة سيبه
وتعـده لنـوائب الحـدثان (٦٦)

فت الذين رجوانداك ولم ينـل
أدنى بنـائك فى المـكارم بانى

انى رأيتك بالمحـامد مغـرما
تبتـاعها برغائب الأثمـان

فـاذا صـنيعة أتممتهـا
وربيتهـا بفوائد الاحسـان

(٦٥،٦٦) المرجع السابق ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

والرجل الذى جمع الى الشجاعة والكرم ينتهى الى بابه المكروبون والملهوفون الذين عضهم الدهر بأنيابه فيغنيهم من فقر ويؤمنهم من خوف فهو يرغب ويرهب ومن يباريه فى ذلك ؟ لا أحد ومن ثم فهو فخر لأبناء ربيعة جميعا .

يقول مروان :

الى باب معــن ينتهى كل راغــب
يرجى الندى أو خائف يترقب(٦٧)

جرى سابقا معن بن زائــدة الذى
به يفخـــر الحيان بكر وتغلب

فبرز حتى ما يجـــارى وانمـــا
الى عرقه ينمى الجــواد وينسب

محـــالف صــولات تميت ونائل
يريش فمــا ينفــك يرجى ويرهب

وهذا الكرم العجيب الذى ذاع صيته وانتشر ذكره وتحدث به الركبان يغرى النساك والمنقطعين للعبادة بالوفود على معن وامتداحه لنيل عطائه كما حدث من يحيى بن منصور النهلى الذى بلغته أفعال معن فوفد اليه ومدحه فقال مروان :

لا تعـــدموا راحتى معن فانهمــا
بالجود أفتنتا يحيى بن منصور

---

(٦٧) ص ١٦ المرجع السابق ، والبصولة : السطوة والوثبة والنائل العطاء ، وراش : أعطى .

لما رأى راحتى معن تدفقتا
بنائل من عطاء غير منزور

ألقى المسوح التى قد كان يلبسها
وظل للشعر ذا رصف وتحبير(٦٨)

ومثل هذا الرجل الوحيد فى كرمه وسخائه يقطع موته آمال المجتدين والعفاة فلا يجدون ما يغريهم بالنجعة الى أبواب الكرماء والوقوف بأعتابهم لشعورهم بموت الجود بموت معن !!

يقول مروان فى رثاء معن :

يا من بمطلع شمس ثم مغربها
ان السخاء عليكم غير مردود

قل للعفاة أريحوا العيس من طلب
ما بعد معن حليف الجود من جود

قل للمنية لا تبقى على أحد
ان مات معن فما ميت بمفقود(٦٩)

فجيعة الشاعر فى ممدوحه :

ولا يستطيع قارىء شعر مروان الذى نظمه فى الاشادة بمناقب معن بن زائدة الا أن يقف طويلا أمام لاميته الرائعة التى رثاه بها رثاء حارا وصادقا يحمل دلائل حبه له ووفائه لذكراه .

ولم تكن هذه المرثية مجرد قصيدة تفيض بوصف المناقب التى

---

(٦٨) المرجع السابق ص ٥٧ .
(٦٩) المرجع السابق ص ٤٠ .

عرف بها الميت أو التى يفترض أن يتصف بها ولكنها حملت الينا حقيقة مشاعر مروان تجاه صاحبه من الحزن عليه والتفجع لفقده والاحساس بالضياع من بعده ، وما أعقبه هذا الاحساس على قلبه من احتراق وعلى جسمه من هزال يلحظـه كل من يحيطـون به ... واسـمعه حين يقول :

مضى لسـبيله من كنت ترجـو
به عثرات دهـرك أن تقـالا(٧٠)

فلسـت بمـالك عبـرات عـين
أبت بدموعهـا الا انهمـالا

وفى الأحشاء منك غليـل حـزن
كحر النـار يشتعل اشـتعالا

كأن الليل واصـل بعد معن
ليـالى قـد قـرن به غطـالا

لقـد أورثتنى وبنـى همـا
وأحزانا نطيـل بها اشـتغالا

وقائلة رأت جسـمى ولونى
معا عن عهـدها قلبـا فحـالا

رأت رجـلا براه الحـزن حتى
أضـر به وأورثـه خبـالا

---

(٧٠) المرجع السابق ص ٨١ وغليل الحزن : شدته ـ حال : تغير ـ براه : الهنرى : السيف ـ الصقال : الشحذ والجلاء . أنكس : غم وأحزن ـ عال : جار .

أرى مروان عـاد كذى نحـــول
من الهنـــدى قد فقد الصـــقالا

فقلت لهـــا الذى أنكرت منـــى
لفجـــع مصـــيبة أنكى وعـــالا

وأيـــام المنون لهـــا صروف
تقـــلب بالفتى حالا فحـــالا

وكم كان وقع المصاب أليما على نفوس العفاة والمحتاجين الذين كان معن يغمرهم بعطاياه ويلم شتاتهم ويجمع شملهم ، ثم تمزقوا بددا وغلبهم الفقر وحلت بهم الكوارث : يقول مروان :

يرانا النـــاس بعدك قل دهـــر
أبى لجـــودنا الا اغتيـــالا

فنحن كأســـهم لم يبق ريشـــا
لهـــا ريب الزمـــان ولا نصـــالا

وقـــد كنا بحوضـــك ذاك نروى
ولا نرد المصـــردة الســـمالا

فلهف أبـــى عليك اذا العطـــايا
جعلن منى كواذب واعتـــلالا

ولـــهف أبى عليـــك اذا الأســـارى
شـــكوا حلقا بأســـوقهم ثقالا

ولهف أبى عليـــك اذا اليتـــامى
غـــدوا شعثا كأن بهم ســـلالا

حتى الماشية العجماء لو استطاعت أن تنطق لنطقت مترحمة على معن ولبكت على أيامه التى كانت تمرح خلالها فى بحبوحة العيش وتنعم بالمراعى النضرة الخصبة واشكت اليه ما مسها بعده من ضر الهزال :

ولهف أبى عليك اذا المواشى قرت جدبا تمات به هزالا

لقد تقطعت الحبال بالشاعر وسدت عليه وعلى أمثاله من العفاة البائسين منافذ السبل بعد معن ذلك المحسن الكريم الذى مات فمات بموته النوال :

أقمنا بالیمامة بعد معن مقاما لا نريد له زيالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

فهو لا ينسى قط حبيبه وولى نعمته الذى كان يشد الى رحابه الرحال كل عام ويقطع اليه المسافات البعيدة أملا فى نواله وثقة بانه سيعود من دياره بحقائب بجر ، وحجور مليئة بالعطاء الجزيل والرزق الوفير ، فعليه الآن وقد رحل معن وأفرد فى حفرته ، ووسد الثرى أن يجزى احسانه .

ونعمه عليه مراثى جيادا صادقة تضاف الى مدائحه التى كان قد ذبحها فيه ثم ينطوى على نفسه حزينا كاسف البال مقسما ألا يقصد أحدا بعد معن لأنه لا يوجد بعده من رجل تشد الى رحابه الرحال :

حباك أخو أمية بالمراثى مع المدح اللواتى كان قالا

أقام وكان نحوك كل عام يطيل بواسط الرحل اعتقالا

وألقى رحله أسفا وآلى يمينا لا يشد له حبالا